المحاضرة الثالثة	تجربة أبو خليل القباني المسرحية

1- سيرة أحمد أبو خليل القباني: (1833-1903) يعد القباني رائدا من رواد المسرح العربي وأحد أهم مؤسسيه في القرن 19م، الذين وضعوا اللبنات الأولى للعمل المسرحي في حقبة زمنية مبكرة، كما أنه وضع الركائز الأولى للمسرح الغنائي العربي، لهذا فهو أبو المسرح الغنائي ومؤسس المسرح في سورية وفي العالم العربي، ولد في دمشق، ودرس اللغة والعلوم الدينية وافتتن بالموسيقى والموشحات، وأحبّ رقص السماح، كما أنه نظم الشعر والزجل مبكراً، ثمّ أولع بالمسرح وانصرف إليه مؤلفاً ومخرجاً وممثلا، ويروى أنه كان يحضر عروض الحكواتي ورقص السماح والغراغوز في مقاهي دمشق، كما أنه حضر عروضا لمسرحيين لبنانيين سبقوه، خاصة مارون النقاش وأتباعه، وقد عرضت الفرقة اللبنانية في دمشق عام 1868 مسرحية: «الإسكندر المقدوني» لإبراهيم الأحدب، إضافة إلى عروض مسرحية في مدارس العازرية في منطقة باب توما بدمشق تذكر الروايات أنه كان يحضر عروضها. نضجت تجربته الفنية وتفتقت عبقريته المسرحية في عقده الثالث، حيث قدم أول عرض مسرحي خاص به في دمشق سنة 1871، تحت عنوان: «الشيخ وضاح ومصباح وقوت الأرواح»، وقد لاقت نجاحا مبهرا وحازت على إعجاب كبير من طرف الجمهور، وقدم أيضا عرضه الأول لمسرحية: « عائدة»، المترجمة عن الإيطالية، والتي وضع ألحانها الإيطالي فيردي، في حديقة تدعى جنينة الأفندي في باب توما، وعادة ما كان في بداياته يمثّل مع فرقته في أماكن متفرقة من دمشق، ومنها منزل ذويه الذي طرد منه من طرف والده بسبب عرض غنائي قدمه فيه، إلى أن أنشأ مسرحاً خاصا، عرض فيه بضع مسرحيات غنائية من وضعه وتلحينه، اقتبس معظمها من "ألف ليلة وليلة". ولم يكن مسرح القباني يقتصر على إمتاع الجمهور وإضحاكهم، بل ساهم في زيادة الوعي تدريجيا، وهو الأمر الذي لم يكن يروق للسلطة الحاكمة التي رمته بتهمة البدعة، ليأتي أمر السلطان العثماني عبد الحميد بإغلاق مسرحه ثم إحراقه، وهو ما اضطره للسفر إلى مصر عام 1884 فلاقى فيها نجاحاً ملحوظاً، وشاركه العمل الشيخ سلامة حجازي صاحب الصوت الجميل، فكان: "صاحب الفضل في تثبيت أقدام هذا الفن في مصر.. والراجح أيضاً أنه هو الذي بذر بذرة المسرح الغنائي في مصر ومهّد الطريق للشيخ سلامة حجازي وسيّد درويش وغيرهما ممّن اشتغلوا بالمسرح الغنائي في مصر. واستطاع القباني ببراعته في الفنون نقل الأغاني العربية إلى خشبة المسرح التمثيلي، وأصبحت جزءا من العرض المسرحي، وبالتالي فهو لم يكن مؤلفا ومخرجا ومسرحيا فحسب، بل كان أيضا ملحنا موسيقيا وعلما من أعلام رقصة السماح، ولم يقتصر مسرحه على التمثيل بل تجاوزه إلى الموسيقى والرقص، ومزج الحوار المسرحي بالغناء فاتحا المجال أمام نوع من الرقص العربي الجماعي، وأصبح بهذا رائد المسرحية الغنائية القصيرة أو الأوبريت العربية.

2- مسرحيات القباني: مثّل القباني وأخرج أكثر من ستين مسرحية، معظمها كان عبارة عن مسرحيات غنائية من تأليفه أو من تأليف غيره، ألّف منها حوالي خمس عشرة مسرحية، نذكر منها:

1- قدم مسرحية: « هارون الرشيد مع أنس الجليس»، وهي تشخيصية ذات خمسة فصول. وقد أراد القباني من خلالها تأسيس مسرح عربي فصيح، يعرض من خلالها موضوعات تراثية مشوقة تحمل الكثير من الحكم والأمثال والنماذج الأدبية الرصينة نثرا وشعرا، مزينة بأغان عربية، وهذا ليواجه بها العروض الأجنبية والعروض العربية المترجمة أو المعربة، ووفقا لهذا الفكر الإصلاحي كتب القباني مسرحيتيه المستوحاة من ألف ليلة وليلة، ليبرهن على التزامه

برسالته المسرحية المنبثقة من إحياء التراث العربي. وقد استهلها القباني بأبيات شعرية أجمل فيها رؤيته الفنية وشرح من خلالها رسالته المسرحية للجمهور، يقول:

مراسح أحرزت تمثيل من سلفوا وعظا وجاءت لنا عنهم كمرآت
تمثل اليوم أحوال الأولى سبقوا من طيبات لهم أو مـــن إساءات
عسى يكون لنا فيما مضى عبر تجدي وتعلم أني عبرة الآتـــي
عسى نكون كرامـــــــــــا إذ يشخصنـا من بعدنا أو فيا طـــــــول الفضيحات
فالحر إن مات أحيته فضائلـــــــــــــــه والوغد إن عاش مقـــرون بأمـــــــــوات
هذا هو القصد من تمثيل من عبروا لا اللهو والزهو والإعجاب بالذات

وهي المعاني التي كان يلقيها على الدوام على تلامذته وعلى فرقته المسرحية، يقول: « التمثيل جلاء البصائر ومرآة الغابر، ظاهره ترجمة أحوال وسير، وباطنه مواعظ وعبر، فيه من الحكم البالغة والآيات الدامغة، ما يطلق اللسان، ويشجع الجبان، ويصفي الأذهان، ويرغب في اكتساب الفضيلة ويفتح للبليد باب الحيلة، ويرفع لواء الهمم، ويحركها إلى مسابقة الأمم، ويبعث على الحزم والكرم، يلطف الطباع، ويشنف الأسماع، وهو أقرب وسيلة لتهذيب الأخلاق ومعرفة طرق السياسة، وذريعة لاجتناء ثمرة الآداب والكياسة. هذا إذا تدرج فيه من ذكر الأحوال إلى ضرب الأمثال ومن بيان المنهاج إلى الاستنتاج، ليرتدع الغر من غيه ويزدجر، ويجد العبرة في غيره فيعتبر».

2- قدم القباني مسرحية: «هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب وقوت القلوب»، وهي تاريخية غرامية أدبية تلحينية تشخيصية ذات خمسة فصول، استوحاها القباني من كتاب ألف ليلة وليلة، وتحديدا من حكاية: التاجر أيوب وابنه غانم وابنته فتنة، وقد حافظ القباني فيها على جوهر الحكاية ولم يضف إلى أحداثها شيئا ذا بال، لكنه من ناحية أخرى خلصها من بعض ما يشينها من العبارات غير اللائقة والإيحاءات الجنسية والكلمات الفاضحة، التي تتنافى وتوجهه الإصلاحي، كما تتنافى مع العادات والتقاليد العربية المحافظة، والتي حاول القباني تكريسها في إطار رسالته التراثية.

3- مسرحية: «الأمير محمود نجل شاه العجم»، وهي غرامية أدبية تلحينية تشخيصية ذات خمسة فصول. وهي مستوحاة أيضا من الليالي، وتدور أحداثها حول قصة قمر الزمان ابن الملك، الذي يعشق صورة لفتاة مرسومة في قطعة قماش، فيعزف عن الزواج تماما إلا إذا كان بصاحبة الصورة، ويسافر متنكرا إلى الهند بحثا عنها، وهناك يصبح وزيرا لملكها إلى حين تنشب الحرب بين مملكة أبيه ومملكة الهند، وتكون سببا في انكشاف أمره لدى والده، ويكتشف أيضا أمر صاحبة الصورة، إذ يتبين أنها ابنة ملك الصين فيرحل إليها ويطلب يدها من أبيها، ثم يعود بها وتزف إليه، وتطيب الأمور للجميع.

4- مسرحية: «عنترة بن شداد» وهي تاريخية أدبية غرامية حربية تلحينية تشخيصية ذات أربعة فصول. حيث اعتمد في تأليفها على القصص الشعبية التي كانت تروى في المجالس والمقاهي التزاما منه بعرض الموضوعات التراثية، وفيها نظم العديد من الأشعار التي زج بها في نسيج أبيات عنترة لدرجة أنه يصعب على المتلقي تمييز أشعار القباني من أشعار عنترة حين يلقيها الممثل على المسرح. والطريف أن القباني لم يعرض فيها قصة عنترة المعروفة، والتي تعود الجمهور على رؤيتها، كغرامه بعبلة وتحرره من العبودية، بل عرض أحداثا عن عنترة بعدما أصبح حرا وزوجا لعبلة، حيث يدور موضوع

المسرحية حول أمير اليمن المدعو الأمير مسعود، الذي يقع في غرام عبلة، ويطمع فيها لنفسه، على الرغم من علمه بأنها زوجة عنترة، وتصل وقاحته مداها عندما يطلب من قبيلة عبس إحضار عبلة إليه، بعد أن أشاع أنها تزوجت عنترة رغما عنها، فيثور عنترة أمام هذا الطلب فيغير مع قبيلته على الأمير مسعود ويرديه قتيلا من أجل شرفه وشرف قبيلته.

4- مسرحية: «ناكر الجميل»، كتبها القباني بأسلوب الأوبريت شعرا ونثرا، وهي مسرحية بسيطة الموضوع سهلة التناول الفني، ألفها القباني دون اعتماد على أصل تراثي معروف، يميل أسلوبه فيها إلى الشكل الروائي أكثر من الشكل المسرحي، فقد تداخل السرد مع الحكاية مع الإرشادات المسرحية من غير فواصل محددة للمناظر والمشاهد، التي أطلق عليها القباني فيما بعد في مسرحياته اسم الوقائع، وقد أصبحت هذه المسرحية درة العروض المسرحية المدرسية نظرا لبروز وغلبة طابع الوعظ والإرشاد فيها.

5- مسرحية: «عفيفة» تاريخية أدبية أخلاقية تمثيلية تلحينية ذات خمسة فصول. وهي مستوحاة من مسرحية: «جنفياف»، وقد تردّدت في الكتب الدينية وسير القديسين.

6- مسرحية: «لباب الغرام» أو «الملك متريدات» تشخيصية ذات خمسة فصول، وهي مسرحية أدبية غرامية حربية. وهي من تأليف جان راسين ترجمها سليم النقاش، ثم اقتبسها منه القباني، حيث لم يكن يتقن اللغة الفرنسية. وتدور أحداث المسرحية حول ملك اليونان متريدات الذي يشن حربا على روما انتقاما لمقتل والد خطيبته مونيم، وتأتي الأخبار بأنه قتل في المعركة، فيحضر ابنه فرناس ليستولي على الحكم ويتزوج مونيم، لكنها ترفض، وكذلك يفعل الابن الثاني اكسيفار، ويحتدم النقاش بين الأخوين حول أحقية كل منهما بالحكم، لكن أخبارا أخرى تأتي مفادها أن الملك لا يزال على قيد الحياة، وعندما عاد الملك زج بأبنيه معا في السجن، ثم بعد فترة عفى عن فرناس، الذي سرعان ما جهز جيشا وتمرد على والده، وبعد أحداث تمكن الأب من قتل ابنه جزاء خيانته، لكن جيشه ضعف أمام أعدائه وكاد أن يهزم، وحينها ظهر اكسيفار واستطاع انقاذ والده والانتصار على أعدائه، ويتأكد الملك من شجاعة ابنه وكرم أخلاقه فيتنازل له عن العرش وعن خطيبته مونيم، وتنتهي المسرحية نهاية سعيدة.

7- مسرحية: «حيل النساء» الشهيرة «بلوسيا»، وهي رواية تمثيلية غرامية أدبية ذات أربعة فصول.

3- الخصائص الفنية العامة لمسرح القباني:

1- كان القباني إحيائي التوجه في مسرحه، فقد عمد إلى إحياء التراث العربي، وأسس مسرحا عربيا حقيقيا، طبق فيه رؤيته الإحيائية في المسرح، فمعظم مسرحياته مستمدة من الحكايات الشعبية، وبصفة خاصة من:"ألف ليلة وليلة"، وهو عموما لم يغيّر في أحداث الحكاية الأصلية، واقتصر عمله على توزيع الحوار بين الشخصيات مجسدا رؤيته الدرامية، لهذا لم يخل مسرحه من حرية الكلمة والشجاعة في الرأي، والتزم بالفصحى في كتاباته وعروضه، ومزج في حواراته المسرحية النثر بالشعر والموشحات، واقتبس من التراث العربي الأصيل ليكون أسلوبه تعليميا ومؤثرا في جمهوره. لكنه بالإضافة إلى هذا فقد أسهم في حركة الاقتباس والنقل التي كانت سائدة في عصره، رغم أنه لم يولها أهمية كبرى مقارنة برسالته التراثية، إلا أنه اقتبس مسرحية: « متريدات» عن راسين، دون أن يكون لهذا تأثير على رسالته التراثية الأساسية.

2- اشتهر القباني بمسرحه الغنائي، الذي عد رائدا له، لهذا فالملاحظ سيطرة الغناء والشعر الغنائي والرقص والموسيقى والموشحات على بنية العمل المسرحي، وهو يمنح الأولوية للموسيقى والغناء في مسرحه، وكان أكبر ما يعنيه في التمثيل

إتقان الألحان الموسيقية والغنائية والافتنان في توفير الرقصات الإيقاعية، فقد قدم خلال مسيرته الطويلة إحدى وثلاثون مسرحية غنائية، أغلبها من تأليفه، وبلغ عددها خمس عشرة مسرحية، منها: « أسد الشرى»، « الأمير محمود نجل شاه العجم»، « الشيخ وضاح»...وقدم فيها موشحاته، فقد أنشد موشح: برزت شمس الكمال، في مسرحية: « الحاكم بأمر الله»، وفي مسرحية: « أنس الجليس» أنشد موشحي: « رقص البان وغنى»، و« شمس كأس الراح تجلى»، وبالإضافة إلى الموشحات لحن القباني مجموعة أغان شعبية أشهرها: « يا مال الشام»، « يا طيرة طيري يا حمامة»، «يا مسعدك صبحية»..

3- الملاحظ أن معظم مسرحيات القباني ضعيفة الحبكة والدرامية، نظرا لسيطرة الغناء والموسيقى والرقص عليها، وبالتالي خلو مسرحياته من الشخصيات المتماسكة المتنامية التي نجدها في المسرح، وهذا نابع من أنه أولى اهتمامه الأساسي لتأسيس مسرح عربي غنائي، يمكن أن يؤصل له من خلال العودة إلى توظيف الإرث الشعري والموسيقي العربي، وقد استطاع تحقيق ذلك من خلال تكريسه لمدرسة مسرحية شامية، استقطبت العديد من التلاميذ العرب من الشوام ومن غيرهم، استطاعوا الاستمرار في هذا الفن وتطويره بعدما وضع القباني أسسه.

4- تلاميذ القباني: مدرسة الشام المسرحية: يظلّ القباني رائداً من رواد المسرح العربي، ناضل كثيرا ليرسي دعائم هذا الفن في مجتمع لم يكن قد تهيأ بعد لمثل هذا الفن، لهذا كانت مهمة القباني دائما تتسم بالصعوبة في جميع مراحلها، سواء في دمشق التي طرد منها بعد إغلاق وإحراق مسرحه، أو في الإسكندرية والقاهرة حيث تم الإقبال على مسرحه حينا والإدبار عنه حينا آخر، إلا أنه استطاع في النهاية تأسيس مسرحه الغنائي، وهو ما يدل عليه تركه تلاميذ له في سورية استمروا في مشروعه المسرحي التأسيسي. نذكر منهم: المعلم داود قسطنطين الخوري (1860- 1939)، وكان هو الآخر موسيقياً، أخلص لفن القباني، فألّف المسرحيات الغنائية التالية: "مثال العفاف في رواية الأميرة جنفياف" مثلت في حمص 1890- "الصدف المدهشة"- اليتيمة المسكوبية"- عمر بن الخطاب والعجوز- الابن الضال.

ورغم أن هذه المسرحيات كانت محدودة الأثر، مقارنة بتركة القباني المسرحية، حيث مثّلها تلاميذ مدرسة الروم الأرثوذكس بحمص، وكان الرجل معلّماً فيها، ورغم ما تخلل هذه المسرحيات التمثيلية من عيوب كثيرة، إلا أنها عدت استمرارا وامتدادا لمدرسة القباني، التي عرفت امتدادا حتى خارج سوريا. أما تلميذه الثاني فهو معروف الأرناؤوط (1893- 1948) الذي ترجم عدة مسرحيات، ومنها: "حرب المائدة" و"ديانا" و"الستار الأسود" و"محمد"، كما ألّف عدة مسرحيات، منها: "أبو عبد الله الصغير" و"الرجوع إلى أدرنة" و"الشريف" و"عمر بن العاص".

لكن ما يدل أكثر على تأثير واستمرار رسالته المسرحية بعد توقف نشاطه إثر وفاته بداء الطاعون سنة 1903، هو تبني الفرق المسرحية العربية الأخرى التي كانت تنافسه لرسالته عبر عرض مسرحياته ومنها مسرحية: عنترة، التي عرضتها فرقة اسكندر فرح وفرقة سليمان القرداحي ويوسف الخياط وجوق السرور...ومسرحيته: مكائد الغرام، التي مثلتها فرقة اسكندر فرح وفرقة سلامة حجازي..ومسرحية: ناكر الجميل، التي بقيت تعرض في المدارس.. وقد استمرت عروض مسرحياته طوال عقدين من الزمن بعد وفاته، إيمانا برسالته المسرحية لإحياء التراث، حيث كان القباني قائدا حقيقيا لإحياء التراث في المسرح العربي.

5- خاتمة: يعد القباني أديب وفنان عصره، أحيا التراث العربي في مسرحياته، وقدمه في أبهى صوره، وأسس مسرحا عربيا طبق فيه رؤيته الخاصة لحركة الإحياء في المسرح، فالتزم بالفصحى في كتاباته وعروضه، وعبر بشعره المسرحي عن خلجات النفس العربية التواقة لتذوق فنون الشعر والكلم، ومزج بروعة النثر بالشعر وبالموشحات في ثنايا حواراته المسرحية، كما اقتبس النماذج الشعرية من التراث العربي لتكون نبراسا وأسلوبا تعليميا وتربويا مؤثرا في جمهوره، وأعاد أحيانا صياغة الأشعار وفق رؤيته المسرحية فنثر المنظوم ونظم المنثور. وهو الفنان الذي أبدع في ألحانه الموسيقية وعرفنا برقص السماح الشعبي، وهو المنظر صاحب التنظير لرسالة المسرح ومطبقها، وهو حامل لواء إحياء التراث في المسرح العربي ومؤسسه الألمعي في آن معا.